ولو تأملتَ هذه الآية لوجدتَ الشـىء الذى يريده الله ويأمر بكونه موجوداً فى الحقيقة ، بدليل أن الله تعالى يخاطبه ﴿ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس] فهو - إذن - كائـن فعلاً ، وموجود حقيـقةً ، والأمر هنا إنما هو لإظهاره فى عالم المشاهدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ (١) فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ ﴾

(يظنُّ) تفيد علْماً غير يقينى وغير مُتاكد ، وسبق أنْ تكلَّمنا فى نسبة القضايا ، فهـناك حكم محكوم به ومحكوم عليـه ، تقول : زيد مجـتهد ، فـأنت تعتقـد فى نسبْة الاجـتهاد لزيد ، فـإنْ كان اعتـقادك صحيحاً فتستطيع أنْ تُقدِّم الدليل على صحته فتقول : بدليل أنه ينجح كل عام بتفوق .

أما إذا اعتقد هذه القضيـة ولم يُقدِّم عليها دليلاً كأنْ سمع الناسَ يقولون : زيد مـجتـهد . فقـال مثلهم ، لكن لا دليلَ عنـده على صدْق

(١) ورد فى هذه الآية تاويلان لها :

١ - من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ فى الدنيا والآخرة فليمـدد بسبب أى بحبل إلى السمـاء - أى : سمـاء بيته - ثم ليـقطع . أى : ثم ليختنق به . قاله ابن عـباس ومجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة وغيرهم .

٢ - من كان يظـن أن لن ينصر الله نبيـه ويكابد هذا الأمر ليـقطعه عنه ، فليـقطع ذلك من أصله من حيث يأتيه فإن أصله فى السـماء (ثم ليقطع) أى : عن النبى الوحىَ الذى يأتيه من الله إن قدر . قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

قال ابن كثيـر فى تفسيره (٢١٠/٣) : « قول ابن عبـاس وأصحابه أولى وأظهر فى المعنى وأبلغ فى التهكم » . وانظر الدر المنثور للسيوطى (١٥/٦ ، ١٦) وقد قال الشيخ الشعراوى - رحمة الله عليه - بكلا القولين ، فكلاهما صحيح محتمل والله أعلم .

هذه المقولة ، كالطفل الذى تُلقِّنه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص] هذه قضية واقعية يعتقدها الولد ، لكن لا يستطيع أنْ يُقدِّم الدليل عليها إلا عندما يكبُر ويستوى تفكيره .

فمن أين أخذ الطفل هذه القضية واعتقدها ؟ أخذها من المأمون عليه : من أبيه أو من أستاذه ثم قلَّده . إذن : إنْ كانت القضية واقعة ، لكنْ لا تستطيع أنْ تقيم الدليل عليها فهى تقليد ، فإن اعتقدتَ قضية واقعة ، وأقمْتَ الدليل عليها ، فهذا أسْمى مراتب العلم ، فإنِ اعتقدتَ قضيةً غير واقعيةٍ ، فهذا جهل .

فالجاهل : مَنْ يعتقد شيئاً غير واقع ، وهذا الذى يُتعب الدنيا كلها ، ويُشْقى مَن حوله ، لأن الجاهل الأميّ الذى لا يعلم شيئاً ، وليست لديه فكرة يعتقدها صفحة بيضاء ، تستطيع أنْ تقنعه بالحقيقة ويقبلها منك ؛ لأنه خالى الذهن ولا يعارضك .

أما الجاهل صاحب الفكرة الخاطئة فيحتاج منك أولاً أنْ تُقنعه بخطأ فكرته حتى يتنازل عنها ، ثم تُلقِى إليه بالفكرة الصواب .

فإنْ تشككْتَ فى النسبة بحيث استوت عندك نسبة الخطأ مع نسبة الصواب ، فهذا هو الشكُّ ، فلا تستطيع أنْ تجزم باجتهاد زيد ، ولا بعدم اجتهاده ، فإنْ غلب الاجتهاد فهو ظَنٌّ ، فإنْ غلب عدم الاجتهاد فهو وَهْم .

إذن : نسبة القضايا إما **علم** تعتقده : وهو واقع وتستطيع أنْ تقيمَ الدليل عليه ، أو **تقليد** : وهو ما تعتقده وهو واقع ، لكن لا تقدر على إقامة الدليل عليه ، أو **جهل** : حين تعتقد شيئا غير واقع ، أو **شك** : حين لا تجزم بالشيء ويستوى عندك النفى والإثبات ، أو **ظن** : حين تُرجِّح الإثبات ، أو **وهم** : حين تُرجِّح النفى .

فالظن فى قوله تعالى : ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ .. (١٥)﴾ [الحج] أى : يمرُّ بخاطره مجرد مرور أن الله لن ينصر محمداً ، أو يتوهَّم ذلك - ولا يتوهم ذلك إلا الكفار - لأنهم يأملون ذلك فى معركة الإيمان والكفر - مَنْ ظَنَّ هذا الظنَّ فعليه أنْ ينتهىَ عنه ؛ لأنه أمر بعيد ، لن يحدث ولن يكون .

وقد ظَنَّ الكفار هذا الظن حين رأوْا بوادر نصر الإيمان وعلامات فوزه ، فاغتاظوا لذلك ، ولم يجدوا شيئاً يريح خاطرهم إلا هذا الظن .

لذلك ؛ يردُّ الله غيظهم عليهم ، فيقول لهم : ستظلون بغيظكم ؛ لأن النصر للإيمان ولجنوده مستمر ، فليس أمامك إلا أنْ تجعل حبلاً فى السماء وتربط عنقك به ، تشنق نفسك حتى تقع ، فإنْ كان هذا الكيد لنفسك يُنجيك من الغيظ فافعل :

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥)﴾ [الحج]

لكن ما الغيظ ؟ الغيظ : نوع من الغضب مصحوب ومشُوب بحزن وأسىً وحَسْرة حينما ترى واقعاً يحدث أمام عينيك ولا يرضيك ، وفى الوقت نفسه لا تستطيع أن تفعل شيئاً تمنع به ما لا يُرضيك .

وهذه المادة (غيظ) موجودة فى مواضع أخرى[1] من كتاب

---

(١) وردتْ هذه المادة فى القرآن الكريم :
- يغيظ . الفعل المضارع . ورد ٣ مرات : (التوبة ١٢٠) ، (الحج ١٥) ، (الفتح ٢٩) .
- الغيظ . الاسم معرف بالـ ورد ٤ مرات : (آل عمران ١١٩ ، ١٣٤) ، (التوبة ١٥) ، (الملك ٨) .
- بغيظكم . الاسم قبله حرف الجر الباء ومضاف إلى ضمير المخاطب للجمع ، ورد مرة واحدة : (آل عمران ١١٩) .
- بغيظهم . الاسم قبله حرف الجر الباء ومضاف إلى ضمير الغيبة للجمع ، ورد مرة واحدة : (الأحزاب ٢٥) .
- لغائظون . اسم الفاعل الجمع مؤكد باللام ورد مرة واحدة : (الشعراء ٥٥) .
- تغيظاً : مصدر الفعل تغيَّظ ، ورد مرة واحدة : (الفرقان ١٢) .

الله، وقد استُعْملَتْ حتى للجمادات التى لا تُحسُّ ، اقرأ قول الله تعالى عن النار : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ .... (٨) ﴾ [الملك] وقال : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) ﴾ [الفرقان] فكأن النار مغتاظة من هؤلاء ، تتأهب لهم وتنتظرهم .

والغَيْظ يقع للمؤمن وللكافر ، فحين نرى عناد الكفار وسُخريتهم واستهزاءهم بالإيمان نغتاظ ، لكن يُذهب الله غَيْظ قلوبنا ، كما قال سبحانه : ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ .. (١٥) ﴾ [التوبة]

أما غيْظ الكفار من نَصْر الإيمان فسوف يَبْقى فى قلوبهم ، فربُّنا ـ سبحانه وتعالى ـ يقول لهم : ثقُوا تماماً أن الله لم يرسل رسولاً إلا وهو ضامنٌ أنْ ينصره ، فإنْ خطر ببالكم خلافُ ذلك فلن يُريحكم ويَشْفى غيظكم إلاَّ أنْ تشنقوا أنفسكم ؛ لذلك خاطبهم الحق سبحانه فى آية أخرى فقال : ﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ .. (١١٩) ﴾ [آل عمران]

ومعنى : ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ .. (١٥) ﴾ [الحج] ﴿ فَلْيَمْدُدْ .. (١٥) ﴾ [الحج] : من مدِّ الشىء يعنى : أطاله بعد أنْ كان مجتمعاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا .. (١٩) ﴾ [الحجر] فكلما تسير تجد أرضاً ممتدة ليس لها نهاية ، وليس لها حافَّة .

والسبب : الحبل ، يُخرجون به الماء من البئر ، لكن هل يستطيع أحد أنْ يربط حبلاً فى السماء ؟ إذن : علَّق المسألة على محال ، وكأنه يقول لهم : حتى إنْ أردتم شَنْق أنفسكم فلن تستطيعوا ، وسوف تظلُّون هكذا بغيظكم .

أو : يكون المعنى : ﴿ إِلَى السَّمَاءِ .. (١٥) ﴾ [الحج] يعنى : سماء البيت وسَقْفه ، كمَنْ يشنق نفسه فى سَقْف البيت .

ويمكن أن نفهم (السبب) على أنه أيّ شيء يُوصلُك إلى السماء ، وأيّ وسيلة للصعود ، فيكون المعنى : خذوا أيَّ طريقة تُوصلُكم إلى السماء لتمنعوا عن محمد أسباب النصر ؛ لأن نَصْر محمد يأتى من السماء فامنعوه ، وهذه أيضاً لا يقدرون عليها ، وسيظل غيظهم فى قلوبهم .

وتلحظ أننا نتكلم عن محمد ﷺ ، مع أن الآية لم تذكر شيئاً عنه ، وكل ما جاء فى الآية ضمير الغائب المفرد فى قوله تعالى : ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ.. ⑮﴾ [الحج] والحديث مُوجَّه للكفار المغتاظين من بوادر النصر لركْب الإيمان ، فقوله : ﴿يَنصُرَهُ .. ⑮﴾ [الحج] ينصر مَنْ ؟ لا بُدَّ أنه محمد ، لماذا ؟

قالوا : لأن الأسماء حينما تُطلَق تدلُّ على مَعَانٍ ، فعندما تقول « سماء » نفهم المراد ، وعندما تقول « قلب » نفهم ، « نور » نعرف المراد . والأسماء إما اسم ظاهر مثل : محمد وعلى وعمر وأرض وسماء ، وإما ضمائر تدل على هذه الأسماء الظاهرة مثل : أنا ، أنت ، هو ، هم . والضمير مُبْهم لا يُعيِّنه إلا التكلُّم ، فأنت تقول : أنا وكذلك غيرك يقول أنا أو نحن ، فالذى يُعيِّن الضمير المتكلّم به حال الخطاب ، فعُمْدة الفهم فى الضمائر ذات المتكلم وذات المخاطب . فإنْ لم يكُنْ متكلّماً ولا مخاطباً فهو غائب ، فمن أين تأتى بقرينة التعريف للغائب ؟

حين تقول : هو ، هى ، هم . مَن المراد بهذه الضمائر ؟ كيف تُعيِّنها ؟ إنْ عيَّنْتَ المتكلم بكلامه ، والمخاطب بمخاطبته ، كيف تُعيِّن الغائب ؟ قالوا : لا بُدَّ أنْ يسبقه شيء يدل عليه ، كأن تقول : جاءنى رجل فأكرمتُه ، أكرمت مَنْ ؟ أكرمت الرجل الذى تحدثتُ عنه ، جاءتنى امرأة فأكرمتُها ، جاء قوم فلان فأكرمتهم . إذن : فمرجع الضمير هو الذى يدلُّ عليه .

لكن لم يسبق ذكْر لرسول الله ﷺ قبل الضمير ليُعيِّنه ويدلُّ عليه ، نعم لم يسبق ذِكْر لرسول الله ، لكن تأمَّل المعنى : الكلام هنا عن النصر بين فريق الإيمان وعلى رأسه محمد ﷺ ، وفريق الكفر وعلى رأسه هؤلاء المعاندون ، فالمقام مُتعيِّن أنه لا يعود الضمير إلا على رسول الله ﷺ[1] .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ .. ①﴾ [القدر]

فالضمير هنا مُتعيِّن ، ولا ينصرف إلا إلى القرآن ، ولا يتعين الضمير إلا إذا كان الخاطر لا ينصرف إلى غيره في مقامه .

اقرأ : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص] تلحظ أن الضمير سابق على الاسم الظاهر ، فالمرجع متأخر ، ومع ذلك لا ينصرف الضمير إلا إلى الله ، فإذا قِيلَ : هو هكذا على انفراد لا يمكن أن ينصرف إلا إلى الله عز وجل .

كذلك في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ .. ⑥①﴾ [النحل] . على ظَهْر أيِّ شيء ؟ الذِّهْن لا ينصرف في هذا المقام إلا إلى الأرض .

وقوله تعالى : ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ①⑤﴾ [الحج] الاستفهام هنا ممَّنْ يعلم ، فهو استفهام للتقرير ، ليُقروا هم بأنفسهم أن غَيْظهم سيظلُّ كما هو ، لا يشفيه شيء ، وأنهم سيموتون بغيظهم ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ .. ①①⑨﴾ [آل عمران]

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٥٥٣) : « الكناية في ﴿يَنصُرَهُ اللَّهُ .. ①⑤﴾ [الحج] ترجع إلى محمد ﷺ ، وهو وإن لم يجر ذكره فجميع الكلام دال عليه ، لأن الإيمان هو الإيمان بالله وبمحمد ﷺ ، والانقلاب عن الدين انقلاب عن الدين الذي أتى به محمد ﷺ » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله : ﴿ أَنزَلْنَاهُ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الحج] أي : القرآن ؛ لأن الضمير هنا كما ذكرنا مرجعه مُتعيِّن ، وما دام مرجعه مُتعيناً فلا يحتاج لذكر سابق . والإنزال يحمل معنىَ العلو ، فإنْ رأيتَ في هذا التشريع الذى جاءك في القرآن ما يشقُّ عليك أو يحولُ بينك وبيْن ما تشتهيه نفسك ، فاعلم أنه من أعْلى منك ، من الله ، وليس من مُسَاوٍ لك ، يمكن أنْ تستدرك عليه أو تناقشه : لماذا هذا الأمر ؟ ولماذا هذا النهى ؟ فطالما أن الأمر يأتيك من الله فبلا بُدَّ أن تسمع وتطيع ولا تناقش .

ولنا أُسْوة في هذا التسليم بسيدنا أبى بكر لما قالوا له : إن صاحبك يقول : إنه أُسْرِى به الليلة من مكة إلى بيت المقدس ، ثم عُرِج به إلى السماء ، فما كان من الصِّدِّيق إلا أنْ قال : إنْ كان قال فقد صدق[1] ، هكذا دون مناقشة ، فالأمر من أعلى ، من الله .

وقلنا : إنك لو عُدْتَ مريضاً فوجدتَ بجواره كثيراً من الأدوية فسألته : لماذا كل هذا الدواء ؟ قال : لقد وصفه الطبيب ، فأخذت تعترض على هذا الدواء ، وتذكر من تفاعلاته وأضراره وعناصره ، وأقحمت نفسك في مسألة لا دَخْلَ لك بها .

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١/٣٩٨) ، وأخرجه الحاكم في مستدركه (٣/٦٢) وصححه وأقره الذهبي من حديث عائشة رضى الله عنها .

هذا قياس مع الفارق ومع الاعتراف بأخطاء الأطباء فى وصف الدواء ، لكن لتوضيح المسألة ولله المثل الأعلى ، وصدق القائل :

سُبْحانَ مَنْ يَرثُ الطَّبيبَ وطبَّهُ ... ويُرِى المريض مَصَارِعَ الآسينا

إذن : حجة كل أمر ليس أن نعلم حكمته ، إنما يكفى أنْ نعلم الآمر به .

ومعنى ﴿آيَاتٍ .. (١٦)﴾ [الحج] أى : عجائب ﴿بَيِّنَاتٍ .. (١٦)﴾ [الحج] واضحات . وسبق أنْ ذكرنا أنَّ كلمة الآيات تُطلَق على معَان ثلاثة : الآيات الكونية التى تُثبت قدرة الله ، وبها يستقر الإيمان فى النفوس ، ومنها الليل والنهار والشمس والقمر ، والآيات بمعنى المعجزات المصاحبة للرسل لإثبات صدْق بلاغهم عن الله ، والآيات التى يتكوَّن منها القرآن ، وتُسمَّى « حاملة الأحكام » .

فالمعنى هنا ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. (١٦)﴾ [الحج] تحمل كلمة الآيات كُلَّ هذه المعانى ، فآيات القرآن فيها الآيات الكونية ، وفيها المعجزة ، وهى ذاتها آيات الأحكام .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ (١٦)﴾ [الحج] وهذه من المسائل التى وقف الناس حولها طويلاً : ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ .. (٩٣)﴾ [النحل] وأمثالها تمسَّك بها مَنْ ليس لهم حَظٌّ من الهداية ، يقولون : لم يُرِد الله لنا الهداية ، فماذا نفعل ؟ وما ذنبنا ؟

وهذه وقفة عقلية خاطئة ؛ لأن الوَقْفة العقلية تقتضى أنْ تذكر الشيء ومقابله ، أما هؤلاء فقد نبَّهوا العقلَ للتناقض فى واحدة وتركوا الأخرى ، فهى - إذن - وَقْفة تبريرية ، فالضال الذى يقول : لقد كتب الله علىَّ الضلال ، فما ذنبى ؟ لماذا لم يَقُلْ : الطائع الذى كتب الله له الهداية ، لماذا يثيبه ؟!

فلماذا تركتم الخير وناقشتم فى الشر ؟

والمتأمل فى الآيات التى تتحدث عن مشيئة الله فى الإضلال والهداية يجد أنه سبحانه قد بيَّن مَنْ شاء أنْ يُضلّه ، وبين مَنْ شاء أنْ يهديه ، اقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة] إذن : كُفْره سابق لعدم هدايته وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [المنافقون] وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص]

إنما يهدى مَنْ آمن به ، أما هؤلاء الذين اختاروا الكفر واطمأنوا إليه وركنوا ، فإن الله تعالى يختم على قلوبهم ، فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، لأنهم أحبُّوه فزادهم منه كما زاد المؤمنين إيماناً : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى .. ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

والهداية هنا بمعنى الدلالة على الخير ، وسبق أنْ ضربنا لها مثلاً ، ولله تعالى المثَل الأعلى : هَبْ أنك تسلك طريقاً لا تعرفه ، فتوقفتَ عند جندى المرور وسألته عن وجهتك فدلَّكَ عليها ، ووصف لك الطريق الموصِّل إليها . لكن ، هل دلالته لك تُلزمك أنْ تسلك الطريق الذى وُصف لك ؟

بالطبع أنت حُرٌّ تسير فيه أو فى غيره . فإذا ما حفظتَ لرجل المرور جميلَهُ وشكرته عليه ، ولمس هو فيك الخير ، فإنه يُعينك بنفسه على عقبات الطريق ، وربما ركب معك ليجتاز بك منطقة خطرة يخاف عليك منها . هذا معنى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

أما لو تعاليتَ على هذا الرجل ، أو اتهمته بعدم المعرفة بمسالك الطرق ، فإنه يدعُكَ وشأنك ، ويضِنُّ عليك بمجرد النصيحة .

وهكذا .. الحق - سبحانه وتعالى - دَلَّ المؤمن ودَلَّ الكافر على الخير ، المؤمن رضى بالله وقَبِل أمره ونَهْيه ، وحمد الله على هذه النعمة ، فزاده إيماناً وأعانه على مشقة العبادة ، وجعل له نوراً يسير على هَدْيه ، أما الكافر فقد تركه يتخبَّط فى ظلمات كفره ، ويتردد فى متاهات العمى والضلال .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ(1) وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

هذه فئات ست أخبر الله عنها بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الحج] ومعنى الفصل بينهم أن بينهم خلافاً ومعركة ، ولو تتبعتَ الآيات التى ذكرت هذه الفئات تجد أن هناك آيتين فى البقرة وفى المائدة .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [البقرة]

وفى المائدة يُقدِّم الصابئين على النصارى ، وفى هذا الموضع تأتى بالرفع بالواو ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا

---

(1) صبا يصبا : خرج من دين إلى دين . والصابئون يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقيل : هم عباد الملائكة . وقيل : عباد الكواكب والنجوم وقيل : عُبَّاد النار . [القاموس القويم ١/٣٦٥] .

وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ [المائدة]

﴿الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿١٧﴾﴾ [الحج] أى : بمحمد ﷺ ، ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا .. ﴿١٧﴾﴾ [الحج] أى : اليهود ، ثم النصارى وهما قبل الإسلام ، أما الصابئون : فهؤلاء جماعة كانوا على دين إبراهيم عليه السلام ، ثم عبدوا الكواكب فَسُمُّوا الصابئة لخروجهم عن الدين الحق . أما المجوس : فهم عبدة النار ، والذين أشركوا : هم المشركون عَبَدة الأصنام والأوثان .

أما التقديم والتأخير بين النصارى والصابئين ، قالوا : لأن النصارى فرقة كبيرة معروفة ولهم نبى ، أما الصابئة فكانوا جماعة خرجوا على نبيهم وخالفوه وأتَوْا بعقيدة غير عقيدته ، فهم قلَّة ، لكن سبقوا النصارى فى الترتيب الزمنى ؛ لذلك حين يراعى السَّبْق الزمنى يقول : ﴿وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ .. ﴿١٧﴾﴾ [الحج] ، وحين يراعى الكثرة والشهرة ، يقول : ﴿النَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ .. ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة] فكلٌّ من التقديم أو التأخير مُراد لمعنى مُعيَّن .

أما قوله : ﴿وَالصَّابِئُونَ .. ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة] بالرفع على خلاف القاعدة فى العطف ، حيث عطفت على منصوب ، والمعطوف تابع للمعطوف عليه فى إعرابه ، فلماذا وسَّط مرفوعاً بين منصوبات ؟

قالوا : لا يتم الرفع بين المنصوبات إلا بعد تمام الجملة ، فكأنه قال : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى ، والصابئون كذلك ، فعطف هنا جملة تامة ، فهى مُؤخَّرة فى المعنى ، مُقدَّمة فى اللفظ ، وهكذا تشمل الآية التقديم والتأخير السابق .

لكن ، كيف ينشأ الخلاف بين الأديان ؟

ينشأ الخلاف من أن قوماً يؤمنون بإله ويؤمنون بالنبى المبلِّغ عن هذا الإله ، لكنهم يختلفون على أشياء فيما بينهم ، كما نرى الخلاف مثلاً بين المعتزلة وأهل السنة ، أو الجبرية والقدرية ، فجماعة تثبت الصفات ، وآخرون يُنكرونها ، جماعة يقولون : الإنسان مُجْبَر فى تصرفاته ، وآخرون يقولون : بل هو مختار .

وقد ينشأ الخلاف بين الأديان للاختلاف فى النبوات ، فأهل الديانات يؤمنون بالإله الفاعل المختار ، لكنْ يختلفون فى الأنبياء موسى وعيسى ومحمد مع أنهم جميعاً حَقٌّ . وقد ينشأ الخلاف من الادعاء ، كالذين يدَّعون النبوة كهؤلاء الذين يعبدون النار ، أو يعبدون بوذا مثلاً .

فهذه ست طوائف مختلفة ذكرتهم الآية ، فما حكم هؤلاء جميعاً بعد بعثة محمد ﷺ ؟

نقول : أما المشركون الذين عبدوا الأصنام ، وكذلك الذين عبدوا النبوة المدَّعاة ، فهؤلاء كفار ضائعون . أما اليهود والنصارى الذين يؤمنون بإله فاعل مختار ، ويؤمنون بنبوة صادقة ، فشأنهم بعد ظهور الإسلام ، أن الله تعالى أقام لنا تصفية آخر الأمر لهذه الديانات ، فمَنْ كان يهودياً قبل الإسلام ، ومَنْ كان نصرانياً قبل الإسلام ، فإن الله أجْرى لهم تصفية عقدية هى الإسلام ، فإنْ كانوا مؤمنين الإيمان الأول بالله تعالى فعليهم أنْ يبدأوا من جديد مؤمنين مسلمين

لذلك قال بعدها : ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ [البقرة]

فبعد ظهور الإسلام بدأت لهؤلاء جميعاً - اليهود والنصارى

والمجوس والمشركين - حياة جديدة ، وفُتحَتْ لهم صفحة جديدة هم فيها أولاد اليوم ، حيث لزمهم جميعاً الإيمان بالله تعالى والإيمان بنبيه محمد ﷺ ، وكان الإسلام تصفية (وأوكازيون إيمانى) يجُبُّ ما قبله ، وعفا الله عما سلف .

والحق - سبحانه - حينما تكلم عن الأجيال السابقة لنبوة محمد ﷺ . قال : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي[1] قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾ [آل عمران]

لذلك نبَّه كُلٌّ من موسى وعيسى - عليهما السلام - بوجود محمد ﷺ وبشَّروا به ، بدليل قول الله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة] والمراد اليهود والنصارى .

وقد جاء محمد ﷺ رحمة للعالمين ، وجامعاً للأديان كلها فى الإسلام الذى زاد عليها ما زاد مما تقتضيه أمور الحياة وتطورات العصر ، إلى أن تقوم الساعة .

جاء الإسلام تصفيةً لهؤلاء ، استأنفوها بإيمان ، واستأنفوها بعمل صالح ، فكان لهم أجرهم كاملاً عند ربهم لا يطعن فيهم دينهم السابق ، ولا عقائدهم الفاسدة الكافرة .

أما إنْ حدث خلاف حول النبوات كما تذكر الآية التى نحن بصددها : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)﴾ [الحج] والفَصْل أن نعرف مَن المحقُّ ومَن المبطل ، وهكذا جمعتْ

(١) الإصر : العهد والعقد والميثاق . [لسان العرب - مادة : أصر] .

الآيات بين حالة الاتفاق وحالة الاختلاف وبيَّنَتْ جزاء كل منهما .

فالفصل إما فصل أماكن ، وإما فصل جزاءات ، قالوا : بالطبع فالحكم بينهم : هذا مُحِقٌّ وهذا مُبطِل سيؤدى إلى اختلاف الأماكن واختلاف الجزاءات .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)﴾ [الحج] لأن الله تعالى هو الحكَم الذى يفصل بين عباده ، والحكم يحتاج إما إلى بينة أو شهود ، والشهود لا بُدَّ أن يكونوا عُدولاً ، ولا يتحقق العدل فى الشهادة إلا بدين يمنع الإنسان أنْ يميل عن الحق ، فإن كان الحكم هو الله فلا حاجة لبيِّنة ، ولا حاجةَ لشهود ؛ لأنه سبحانه يحيط علمه بكل بشىء ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .

ومن العجيب أن الحُكْم والفَصْل من الحق سبحانه يشمل كل السلطات : التشريعية والقضائية والتنفيذية ، فحُكْمه سبحانه لا يُؤجَّل ولا يُتحَايل عليه ، ولا تضيع فيه الحقوق كما تضيع فى سراديب وأدراج المحاكم .

أما حُكْم البشر فينفصل فيه التشريع عن القضاء عن التنفيذ ، فربما صدر الحكم وتعطَّل تنفيذه ، أما حكم الله فنافذ لا يُؤجِّله شىء .

إذن : المسألة لن تمرَّ هكذا ، بل هى محسوبة لك أو عليك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ (١٨)﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ ...﴾ [الحج: ١٨] يعنى: ألم تعلم؛ لأن السجود من هذه الأشياء سجود على حقيقته كما نعلمه فى السجود من أنفسنا، ولكل جنس من أجناس الكون سجود يناسبه.

وسبق أن تحدثنا عن أجناس الكون وهى أربعة: أدناها الجماد، ثم يليه النبات، حيث يزيد عليه خاصية النمو وخاصية الحركة، ثم يليه الحيوان الذى يزيد خاصية الإحساس، ثم يليه الإنسان ويزيد عليه خاصية الفكر والاختيار بين البدائل.

وكل جنس من هذه الأجناس يخدم ما هو أعلى منه، حيث تنتهى هذه الدائرة بأن كل ما فى كون الله مُسخَّر لخدمة الإنسان، وفى الخبر: « يا ابن آدم خلقتُ الأشياء من أجلك، وخلقتُكَ من أجلى، فلا تشتغل بما هو لك عَمَّنْ أنت له »(1).

فكان على الإنسان أن يفكر فى هذه الميزة التى منحه ربه إياها، ويعلم أن كل شىء فى الوجود مهما صَغُر فله مهمة يؤديها، ودور يقوم به. فأَوْلَى بك أيها الإنسان وأنت سَيِّد هذا الكون أنْ يكون لك مهمة، وأن يكون لك دور فى الحياة فلستَ بأقلَّ من هذه المخلوقات التى سخَّرها الله لك، وإلاَّ صِرْتَ أقلَّ منها وأدنى.

إن كانت مهمة جميعِ المخلوقات أنْ تخدمك لأنك أعلى منها؛ فانظر إلى مهمتك لمَنْ هو أعلى منك، فإذا جاءك رسول من أعلى منك ليُنبِّهك إلى هذه المهمة كان عليك أن تشكره؛ لأنه نبَّهك إلى ما ينبغى لك أن تشتغل به، وإلى مَنْ يجب عليك الاتصال به دائماً؛ لذلك فالرسول لا يصح أن تنصرف عنه أبداً؛ لأنه يُوضِّح لك مسائل كثيرة هى مَحَلٌّ للبحث العقلى.

---

(1) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٣٨): « ورد فى بعض الكتب الإلهية: يقول الله تعالى: ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، فاطلبنى تجدنى، فإن وجدتنى وجدت كل شىء، وإن فُتُّك فاتك كل شىء، وأنا أحبّ إليك من كل شىء » وقد أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٥٨) عن أبى هريرة رفعه « قال الله: ابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأتُ صدرك شغلاً ولم أسدّ فقرك ».

وكان على العقل البشرى أن يفكر فى كل هذه الأجناس التى تخدمه : ألكَ قدرة عليها ؟ لقد خدمتْكَ منذ صغرك قبل أنْ تُوجِّه إليها أمراً ، وقبل أنْ توجدَ عندك القدرة لتأمر أو لتتناول هذه الأشياء ، كان عليك أنْ تتنبه إلى القوة الأعلى منك ومن هذه المخلوقات ، القوة التى سخَّرتْ الكون كله لخدمتك ، وهذا بَحْث طبيعي لا بُدَّ أن يكون .

هذه الأشياء فى خدمتها لك لم تتأبَّ عليك ، ولم تتخلف يوماً عن خدمتك ، انظر إلى الشمس والقمر وغيرهما : أقالت الشمس يوماً : إن هؤلاء القوم لا يستحقون المعروف ، فلن أطلع عليهم اليوم ؟!

الأرض : هل ضنَّتْ فى يوم على زارعها ؟ الريح : هل توقفتْ عن الهبوب . وكلها مخلوقات أقوى منك ، ولا قدرةَ لك عليها ، ولا تستطيع تسخيرها ، إنما هى فى قبضة الله - عز وجل - ومُسخَّرة لك بأمره سبحانه ، ولأنها مُسخَّرة فلا تتخلف أبداً عن أداء مهمتها .

أما الإنسان فيأتى منه الفساد ، ويأتى منه الخروج عن الطاعة لما منحه الله من منطقة الاختيار .

البعض يقول عن سجود هذه المخلوقات أنه سجود دلالة ، لا سجوداً على حقيقته ، لكن هذا القول يعارضه قول الله تعالى :

﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور]

فلكل مخلوق مهما صَغُر صلاة وتسبيح وسجود ، يتناسب وطبيعته ، إنك لو تأملت سجود الإنسان بجبهته على الأرض لوجدتَ اختلافاً بين الناس باختلاف الأحوال ، وهم نوع واحد ، فسجود الصحيح غير سجود المريض الذى يسجد وهو على الفراش ، أو جالس على مقعد ، وربما يشير بعينه ، أو أصبعه للدلالة على السجود ، فإنْ لم يستطع أجرى السجود على خاطره .

فإذا كان السجود يختلف بهذه الصورة في الجنس الواحد حَسْب حاله وقدرته وطاقته ، فلماذا نستبعد أن يكون لكل جنس سجوده الخاص به ، والذي يتناسب مع طبيعته ؟

وإذا كان هذا حال السجود في الإنسان ، فهل ننتظر مثلاً أن نرى سجود الشمس أو سجود القمر ؟! ما دام الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قال-إنها تسجد ، فلا بُدَّ أن نؤمن بسجودها ، لكن على هيئة لا يعلمها إلا خالقها عز وجل .

بالله ، لو جلس مريض يصلي على مقعد أو على الفراش ، أتعرف وهو أمامك أنه يسجد ؟ إذن : كيف نطمع في معرفة كيفية سجود هذه المخلوقات ؟

ومن معاني السجود : الخضوع والطاعة ، فمَنْ يستبعد أن يكون سجود هذه المخلوقات سجوداً على الحقيقة ، فليعتبر السجود هنا للخضوع والانقياد والطاعة ، كما تقول على إنسان متكبر : جاء ساجداً يعني : خاضعاً ذليلاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت]

إذن : لك أن تفهم السجود على أيِّ هذه المعاني تحب ، فلن تخرج عن مراده سبحانه ، ومن رحمة الله أنْ جعل هذه المخلوقات خاضعة لإرادته ، لا تنحلّ عنها أبداً ولا تتخلف ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]

ونحن نتناقل الآن ، ونروى بعض حوارات السالكين وأهل المعرفة وأصحاب الفيوضات الذين فهموا عن الله وتذوّقوا لذّة قُرْبه ، وكانوا يتحاورون

ويتنافسون لا للمباهاة والافتخار ، إنما للترقى فى القرب من الله .

جلس اثنان من هؤلاء العارفين وفى فَمِ أحدهم نَخْمَة يريد أنْ يبصقها ، وبدتْ عليه الحيرة ، وهو ينظر هنا وهناك فقال لَه صاحبه: ألْقها واسترح ، فقال : كيف وكلما أردتُ أنْ أبصقها سمعت الأرض تُسبِّح فاستحيْتُ أنْ ألقيها على مُسبِّح ، فقال الآخر ـ ويبدو أنه كان فى منزلة أعلى منه ـ وقد افتعل البَصْق وقال : مُسبِّح فى مُسبِّح .

إذن : فأهل الكشف والعارفون بالله يدركون هذا التسبيح ، ويعترفون به ، وعلى قدر ما لديك من معرفة بالله ، وما لديك من فَهْم وإدراك يكون تلقِّيك وتقبُّلك لمثل هذه الأمور الإيمانية .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حين قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج] معلوم أن مَنْ فى السموات هم الملائكة ولسْنا منهم ، لكن نحن من أهل الأرض ويشملنا حكم السجود وندخل فى مدلوله ، فلماذا قال بعدها : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج] ؟

كلمة : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج] تُبيِّن أن لنا قهريةً وتسخيراً وسجوداً كباقى أجناس الكون ، ولنا أيضاً منطقة اختيار . فالكافر الذى يتعوَّد التمرُّد على خالقه : يأمره بالإيمان فيكفر ، ويأمره بالطاعة فيعصى ، فلماذا لا يتمرد على طول الخط ؟ لماذا لا يرفض المرض إنْ أمرضه الله ؟ ولماذا لا يرفض الموت إنْ حَلَّ به ؟

إذن : الإنسان مُؤتمر بأمر الله مثل الشجر والحجر والحيوان ، ومنطقة الاختيار هى التى نشأ عنها هذا الانقسام : كثير آمن ، وكثير حَقَّ عليه العذاب .

لكن ، لماذا لم يجعل الله - سبحانه وتعالى - الخَلْق جميعاً مُسخَّرين ؟

قالوا : لأن صفة التسخير وعدم الخروج عن مرادات الله تثبت لله تعالى صفة القدرة على الكل ، إنما لا تُثبت لله المحبوبية ، المحبوبية لا تكون إلا مع الاختيار : أنْ تكون حُراً مختاراً في أنْ تُؤمنَ أو تكفر فتختار الإيمان ، وأنْ تكون حُراً وقادراً على المعصية ، لكنك تطيع .

وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - : هَبْ أن عندك عبدين ، تربط أحدهما إليك في سلسلة مثلاً ، وتترك الآخر حُراً ، فإنْ ناديتَ عليهما أجاباك ، فأيهما يكون أطْوعَ لك : المقهور المجبر ، أم الحُرّ الطليق ؟ .

إذن : التسخير والقهر يُثبت القدرة ، والاختيار يُثبت المحبة .

والخلاف الذي حدث من الناس ، فكثير منهم آمن ، وكثير منهم حقَّ عليه العذاب ، من أين هذا الاختلاف يا رب ؟ مما خلقتُه فيك من اختيار ، فمَنْ شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، فكأن كفر الكافر واختياره : لأن الله سخَّره للاختيار ، فهو حتى في اختياره مُسخَّر .

أما قوله تعالى : ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ .. ١٨﴾ [الحج] يعني : باختياراتهم ، وكان المفروض أنْ يقول في مقابلها : وقليل ، لكن هؤلاء كثير ، وهؤلاء كثير أيضاً .

ومعنى : ﴿حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ١٨﴾ [الحج] حقَّ : يعني ثبتَ ، فهذا أمر لا بُدَّ منه ، حتى لا يستوي المؤمن والكافر : ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ٣٥﴾ [القلم] إذن : لا بُدَّ أنْ يعاقب هؤلاء ، والحق يقتضي ذلك .

وقوله سبحانه : ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا